يوم الجـــلاء ...!

للأستاذ على الطنطاوى

— ٢ —

فى عمر الإنسان ساعات هى العمر ، تفنى الليالى وتنقضى الأعمار وتخلد هذه الساعات ذكرى فى قلوب البنين . وفى تاريخ الأمم أيام هى التاريخ ، تمرّ السنون مُتَحدِّرَة فى دَرَك الماضى ، مسرعة إلى هوّة النسيان ، وتبقى هذه الأيام جديدة لا تبلى ، دانية لا تنأى ، مشرقة لا تغيب ... وللإنسانية أيام هى ركن الإنسانية ، لولاها ما قام لها بنيان ، ولا ثبت لها وجود ... أيام قد عمت بركاتها ، وشملت خيراتها البشر جميعاً ... أيام هى ينابيع الخير والحق والعدل فى بيداء الزمان ؛ وهى المفخرة لأمة أرادت الفخار ، وما أكثر هذه الأيام الغرّ فى تاريخنا ! تلك الأيام التى أفضلنا فيها على العالم كله ، وسمونا به إلى ذرى الحضارة : يوم الهجرة ، وبَدْر ، والقادسية ، واليرموك ، ونهاوند ، وأيام قتيبة وابن القاسم فى المشرق ، وعقبة وطارق فى المغرب ، ومحمد الفاتح فى الشمال ، ويوم عين جالوت ، وحطين ، واليوم الأغرّ الذى أعاد لنا يوم حطين ، وكان فجر اليوم الجديد للعرب بل للمسلمين أجمعين : (يوم الجلاء) !

إنه يوم مُعْلَم فى موكب الزمان ، إنه شَعَارَةٌ من شعائر المجد يقف عليها الفلك كلما دار دورته وقفةً فيها خشوع وفيها فرح وفيها إجلال . إننا قد ابتهجنا بالجلاء وهتفنا له ورقصنا وصفقنا ، وملأنا منازل العربية أنساً به وفرحا ، ولكنا لم نعرف قدر يوم الجلاء ، إنما يعرفه من سيأتى بعدنا ، يعرفه غداً من ينعم بظلّ هذه الشجرة التى نبتت اليوم . هنالك وقد امتدت فروعها ونمت حتى ظلّلت بلاد العربية والإسلام ، يقول أبناؤنا: يا ما أكرم ذلك القضيب الطرىّ الذى صار الجذع الضخم لهذه الدوحة الباسقة ! وهنالك يبلغ من خطر هذا اليوم أنه سيمجد الجيل الجديد شيوخاً قد لا تكون لهم مرية إلا أنهم رأوا هذا اليوم بعيونهم ، وعاشوا فيه حقيقة لا بالخيال . وسيجلس هؤلاء الشيوخ فى صدور المحافل يحدثون الناس عن الذى رأوه ، ويصفون كيف بدت تباشير الفجر المبارك ، ليوم العروبة الجديد ، وسيكون لكل حركة تحركناها اليوم وكل كلمة قلناها ، معنى كبير لا نتصوره نحن الآن ! سيصير هذا اليوم بتفصيلات وقائعه ودقائق أحداثه ملكا للتاريخ الذى يقدس كل ما يدخل حماه ، ويومئذ يُعرف (يوم الجلاء) !

* * *

وقد زعم العداة أننا فرحنا هذا الفرح لأننا أُعطينا ما لم نكن نحلم به ، كالفقير المسكين إذ يطلب فلساً فيمنح ديناراً ، كلا ! إننا لم نأخذ إلا الأقل من حقنا . إن الجلاء ليس عجباً ، وإنما كان العجب العجاب أن يكون فى ديار الإسلام احتلال . العجب أن لا نحكم نحن الأرض ونحن خلقنا من أصلاب من حكموها ، وورثنا القرآن الذى به دانت لهم الأرض !

ولكنا فرحنا لأن الله جعلنا نقرأ هذا التاريخ الماجد العظيم قبل أن يكتب ، وأن ندرك أول الاقبال كما شهدنا آخر الادبار ، فنحن المخضرمون ... وإذا كان نور التوحيد قد سطع من الحجاز فكانت المدينة عاصمة الراشدين ، ثم مشى إلى دمشق فصارت عاصمة الأمويين ، فكذلك كان مطلع شمس الحرية ، بدت من الحجاز والجزيرة فكانت أول قُطر لنا خلا من أجنبى ، ثم امتدت أنوارها إلى دمشق ... وهى تمشى الآن إلى القاهرة وإلى بغداد ، ثم تسلك طريق الأندلس ، الفردوس الاسلامى المفقود الذى سيعود ، والطريق الآخر الذى يصل إلى الـ (باكستان) ديار الأطهار[1] ، فلا يبقى فى ظلال المآذن كافر يحكم بغير ما أنزل الله !

وزعموا أن هذا الجلاء قد أتى عفواً بلا تعب ، وأننا لم نرجف عليه بخيل ولا ركاب ، ولولا أنها جاءت به مصلحة الانجليز ما جاء ! وكذب هؤلاء الزاعمون ولؤموا ...

كذبوا والله ... أوَ فليخبرونى : أجاهدت أمة على ضعفها وقلة عددها ، وعلى كثرة عدوّها وقوته مثلما جاهدنا ؟ إن فى

(١) وتلك ترجمة الكلمة ، والباكستان أمنية كل مسلم فى الهند ، يقودهم إلى تحقيقها مولاى محمد على جناح لا يشذ عنها إلا أبو الكلام أزاد وقليل من المسلمين معه .

مصر العزيزة سبعة عشر مليونا ، وفى أندونسية سبعين ، وفى الهند مائة ، ونحن لا نعدّ كلنا بدونا وحضرنا ، رجالنا ونساؤنا ، أكثر من ثلاثة ملايين ، وقد ابتلينا بفرنسا ذات الطيش والحمق والملايين المائة والعُـدَدَ والآفات .. فسلوا الفرنسيين : هل أرَحْناهم يوماً واحداً من ميسلون إلى يوم الجلاء ؟ أما ثرنا على فرنسا وكسرنا جيوشها فى خمس مواقع ؟ سلوا الجنرال ميشو القائد الذى حارب الألمان عند المارن: أما أباد حملته مجاهدون منا ، لم يتعلموا فى مدرسة حربية ولا درسوا فنون القتال ، وغنمنا عتادها كله فلم يعد من الحملة بعد معركة المزرعة إلا مائتان وخمسون جندياً فقط ! سلوا الغوطة عن معارك الزور وعما صنع حسن الخراط ؟ سلوا النّبك وجبالها ، وحماة وسهولها ، وجنرالات الفرنسيين عن بطولة قوادنا الأبطال ، فوزى القاوقجى ، وسعيد العاص ، والبطل الفرد سلطان الأطرش ، وعشرات وعشرات إن لم أعدهم اليوم ، فما يجهلهم أحد !

أما ضرب الفرنسيون دمشق أقدم مدن الأرض العامرة بالقنابل مرتين ، فى عشرين سنة ؟ أما أحرقوا حىّ الميدان وهو ثلث دمشق ودمّروه فلم ينهض من كبوته إلى اليوم ؟ أما أضرموا النار فى جرمانا والمليحة وزبدين وداريا ودير بحدل والهيجانية والنزلانية وتل مسكن ودير سلمان وقرى أخرى لا يحصيها من كثرتها العدّ ؟

بل سلوا شوارع دمشق ودروبها وساحاتها ، عن إضراباتها ومعاركها ومظاهراتها ؟ أما لبثت فى مطلع سنة ١٩٣٦ خمسين يوما مضربة لا تجد فيها حانوتا واحداً مفتوحاً ، مقفرة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون ، فتعطلت تجارة التاجر ، وصناعة الصانع ، وعاش هذا الشعب على الخبز القفار ، وطوى ليله من لم يجد الخبز ، ثم لم يرتفع صوت واحد بشكوى ، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بتذمر أو ضجر ، بل كانوا جميعاً من العالم إلى الجاهل ، ومن الكبير إلى الصغير ، راضين مبتهجين ، يمشون ورؤوسهم مرفوعة ، وجباههم عالية ، ولم نسمع أن (دكانا) من هـذه الدكاكين قد مس أو تعدى عليه أحد ، ولم يسمع أن لصاً قد مدّ يده خلال هذه الأيام إلى مال ، وقد كانت الأسواق كلها مطفأة الأنوار ليس عليها حارس ولا خفير ، فهل قرأ أحد أو سمع أن بلداً فى أوربة أو أميركة أو المريخ يسير فيه اللصوص جياعاً ولا يمدون أيديهم إلى المال المعروض حرمة لأيام الجهاد الوطنى ؟ ولقد بقى الأولاد فى المعسكر العام فى المسجد (الأموى) أياماً طوالا يرقبون وينظرون ، فإذا فتح تاجر محله ذهبوا فأغلقوه ... ففتح (حلوانى) مشهور ، فذهب بعض الأولاد فحملوا بضاعته ، صدور (البقلاوة والنمورة والكنافة) إلى المسجد ، وتشاوروا بينهم ماذا يعملون بها ؟ فقال قائل منهم : نأكلها عقاباً له ! : اخرس ويلك ، هل نحن لصوص ؟ ثم أرجعوها إليه بعد دقائق وما فيهم إلا جائع !!

فهل قرأتم أو سمعتم أن صبيان باريز ولندن ونيويورك فعلوا مثله ؟

وقد عمد الفرنسيون آخر أيام الإضراب إلى فتح المخازن قسراً ، فكان أصحابها يدعونها مفتوحة ولا يقتربون منها ، وفيها أموالهم التى تعدل أرواحهم

و (التبرعات) ؟ ألم يكن الناس يعطونها من غير أن يطلبها منهم أحد ؟ ألم يكونوا يتسابقون إلى دفعها ؟ ألم يرفض كثير من الناس أخذ (الاعانات) ويقولوا : اعطوها غيرنا ممن هم أحوج إليها منا ، نحن نجد طعاماً هذا النهار !

لقد وقع هذا وشاهدته أنا مراراً ، فأىّ وطنية أعظم من هذه الوطنية ؟ وأى اتحاد أوثق من هذا الاتحاد الذى تصبح فيه المدينة كلها أسرة واحدة ؟

والبطولة والجهاد ؟ ألم يفعل الشاميون الأفاعيل ؟ ألم يهجموا على النار والحديد ، ويقاوموا بالحجارة أروع وأبشع ما وصلت إليه حضارة الغرب من ضروب التقتيل والإهلاك والتدمير ؟ ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ؟ ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل ، ثم يصدمونه صدمة الند للند ، ثم لا ينجلى الغبار إلا عن حق يظفر أو شهيد يقتل ، أو جريح يؤسر ؟ ألم تلبث دمشق مدة الانتداب

وهى فى حرب ساحتها شوارعها وميادينها ، لا تكاد تخلق منها الخنادق والأسلاك والرشاشات والدبابات حتى تعود فتظهر مرة أخرى ، ولا تهدأ النار فى ركن من أركانها حتى يندلع لسان النار فى ركن آخر ، ودمشق ثابتة على جهادها ؟

ألم يشيّع الأمهات أبناءهن إلى المقبرة ضاحكات هاتفات ؟ ألم يجاهد الطفل الصغير ، والمرأة العجوز ، والشيخ الفانى ؟ ألم تمتلئ السجون بالأبرياء ، ألم تضق المقابر بالشهداء ؟

فهل تكلم تاريخ هؤلاء الفرنسيين فى آذانهم ؟ هل عرفوا لهذا الشعب حقاً ، هل قدروا له تضحيته ، هل رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم حينما كانت تجوز بهم مواكب شهدائه ؟ هل خشعت قلوبهم حينما رأوا مسيل دمائه ؟ لا . إنهم نسوا تلك الدعوى الكاذبة ، دعواهم أن أجدادهم هم الذين أعلنوا حقوق الإنسان ، وأنهم غسلوا بدمائهم صفحة الاستعباد والاستبداد ، ونسوا ما كتبه روسّو وفولتير ومنتسكيو ، وما قاله ميرابو وسيّيس ولافايت ، وما كان يكذب به الفرنسيون (أيام ثورتهم تلك) على الشعوب ، إذ يعلنون أنهم نصراء المظلومين !

إنى ماخططت هذه الكلمات لأؤرخ فيها جهاد الشام ، فانها تؤلف فيه الأسفار الضخام ، ويخلد حديثه على طول المدى ، وما ذكرت نبأ إضراب الخمسين ، لأتقصى أخباره ، وأجمع حوادثه ، وإنما أردت أن أردّ كذبة ما زلنا نسمعها حتى من الأصدقاء ...

وما عظمة جهادنا فى هذا الإضراب الشامل وحده ؟ ولا فى المظاهرات الدامية ، ولا فى القتال والنضال ؟ بل العظمة فى هذه التربية الوطنية العجيبة التى أثبت الشعب العربى فى الشام أنه بلغ فيها غاية الغايات ، فكان فى اتحاده واجتماعه على الفكرة الواحدة وتحمله الجوع والألم فى سبيلها ، وإقدامه على الموت من أجلها ، مثلا للشعوب القوية الحرّة . وما ظنك بشعب فقير يدع فيه التاجر مخزنه ، والعامل معمله ، والطالب مدرسته ، ثم يؤلفون جميعاً صفاً واحداً ، فينتزع حقه من أفواه البنادق ، ومنافذ الدبابات ويسجل جهاده على ثرى وطنه بمداد دمه ؟

وما ظنك بشعب تودع فيه المرأة ولدها ، ثم تدفعه إلى الشوارع ليجاهد ويناضل ، ثم ينمى إليها ، ثم يحمل إلى دارها ميتاً ، فتغسله بيدها ، وتخرج فى جنازته تهتف وتزغرد ، ودموعها تسيل على خدّيها ، وتدع المرأة أولادها بلا عشاء لتدفع المال للفقراء من أبناء الوطن ...

أيقال لهذا الشعب إنه استرد حريته ، وجلا عن أرضه عدوّه : لقد جاءك الجلاء عفواً وبلا تعب ؟

كلا . إنها ما جاهدت أمة مثل جهادنا ، ولا حملت مثل ما حملنا . إنا قد رأينا الموت ، وألفنا الفقر ، واعتدنا الجوع ، وأصبحت مدينتنا بلاقع ، وأهلها مفجوعين ، ونساؤها ثاكلات ، أفيكثر علينا أن ننعم بالجلاء ؟ وهل أخذناه بعد ذلك منحة من الانكليز ؟

كلا ثم كلا ، إنا أخذنا حقنا بعون الله ثم بمزائمنا ، ولو والله عاد فاستلبه منا أهل الأرض مجتمعين لقارعناهم عليه ونازلناهم حتى نستعيده كاملاً أو نموت دونه . وليس فى الدنيا أقوى ممن يريد الموت ، لأن الذى يريد الموت لا تخيفه وسائله ولا آلاته !

* * *

أستغفر الله ! اللهم إنا نبرأ إليك من أن نعتمد على أنفسنا ، فانه لا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم لك الحمد وبك التوفيق ، ولا اعتماد إلا عليك .

اللهم لك الحمد على أن أحييتنا حتى رأينا هذا اليوم العظيم ، وشهدنا جيشنا يعرضه زعيمنا تحت علمنا ... فان هذه الفرحة تطغى على تلك الآلام ...

على أننا لم نعرض هذا الجيش الصغير الذى ربّاه الفرنسيون ، وأعانهم على حرب هذا الوطن ، ثم جاءنا تائباً فقبلنا من كرمنا توبته ، واستغفرنا فغفرنا له حوبته ، بل عرضنا الفصيلة الأولى من جيش المروءة ، فرفرفت أعلامها فوق الصفوف ، واجتمع فيها جنودها من أقطارها كلها[1] ... هذه بقية جيش الماضى الذى خفقت له تحت كل نجم راية ، وسما له فى كل رَبْع علم ،

(١) إلا المغرب فك الله إسارَه .

وكتب له فى كل معركة ظفر ، وهذه نواة جيش المستقبل الذى سيعيد بعون الله تلك الأمجاد .

لقد طالما رأيناه يعرض علينا هذا الجيش ، يعرضه سادة الأمس كما يعرض المعلم الظالم عصاه على التلاميذ ، والطاغية الجبار سيفه . يقولون لنا : انظروا إلى قوة فرنسا ... واحذروا أن تفتحوا باسم الحرية أفواهكم ... وإلا نزلت هذه السيوف على أعناقكم ، وضربت هذه المدافع دوركم ، وكان هؤلاء الجند الذين هم أبناؤكم عونا عليكم ... فجاء رئيسنا يعرضه اليوم ، ليقول : انظروا إلى جيشكم الذي يذبّ عنكم ، ويحمى حريتكم ، إنه لكم !

فلا تلوموا دمشق إن هشت كلها من قبل مطلع شمس يوم الجلاء لتشهد هذا العرض . إنه عرض مبارك ، التقى فيه أول مرة الإخوان الذين كانوا يتعارفون على السماع لا يعرف الأخ منهم أخاه ، فمشى فيه الجندى المصرى إلى جانب العراقى ، والنجدى إلى جنب اللبنانى ، والأردنى مع اليمانى ، مشوا جميعاً فى طريق واحدة على قدم واحدة إلى غاية واحدة .

اسمعوا ، فهذه هى المدافع ترعد وتدوّى وتزلزل الجوّ رجّة واهتزازاً ! انظروا فهذه هى الطائرات تحوّم وتحمحم ، وتعلو وتنحط ، وتجيء وتذهب ، ولكن لاتفزعوا ، فانها لن تؤذيكم ، إنها ليست مدافع الفرنسيين التى تدمر ، ولا هى طائراتهم التى تصبّ الحمم ! لقد ذهب الفرنسيون ولن يعودوا . إنها مدافعنا نحن ، لقد صارت لنا ياقوم مدافع ... إنها طياراتنا ، لقد صار للعرب طيارات ، إنها أول مرة نسمع فيها المدافع تنطق بارادتنا وأيدينا ، ونرى الطيارات تعلونا فلا ترمينا بالقنابل التى فيها الموت بل بالقراطيس التى فيها السكر ، تسقط فى مظلات صغيرة هدية من مصر ومن العراق ، وبشرى بأن أيامنا الآتية ستكون حلوة كالسكر .

فيا أيها الإخوان المصريون والعراقيون : شكراً شكراً . ويا إخواننا جميعاً لكم الشكر .

أنتم أفضتم على هذا العيد بهاءه . أنتم ألبستموه رونقه . أنتم جعلتموه أعظم وأجلّ ، حين جعلتموه (يوم العروبة) كلها ، لايوم سورية وحدها ، وبكم بعد الله قوينا على حمل أثقال الجهاد ، وأعباء الظلم ، حتى منّ الله علينا فظفرنا ، وعليكم أنتم ستقف عرائمنا وأموالنا وسواعدنا ، وفيكم سنبذل مهجنا وأرواحنا ، حتى يمنّ الله على أقطار العربية كلها بالحرية كما منّ بها علينا ، بالحرية النقية التى لا تمكرها حماية ولا وصاية ولا انتداب ، إننا لن نلقى السلاح وفى الدنيا بلد إسلامى يحتله أجنبى !

وأنت ياعلمنا ... اخفق مطمئناً ، فقد عدت إلى مكانك ، ولن تنزل منه أبداً . لن يغلبك عليه علم غاصب آخر ولو ظاهرته عفاريت الجن ومَرَدَة الشياطين وجاء معه بعشرة قنابل ذرّية ، لن يأخذه منك أبداً ونحن أحياء ، إلا علم (الوحدة العربية) أولاً ثم علم (الخلافة الإسلامية) ثانياً إذ يبقى فيه عالياً خفاقاً إلى يوم القيامة .

(دمشق) على الطنطاوى

صدر حديثاً :

للأستاذ صلاح الدين المنجد

١ – دمشق القديمة

أسوارها ، أبراجها ، أبوابها

أحسن دراسة تظهر ماضى هذه المدينة الخالدة منذ نشأتها إلى العصر الحاضر ، مزودة بالصور والرسوم والتخطيطات .

٢ – بيمارستان نور الدين بدمشق

دراسة مفصلة عن نور الدين وآثاره فى دمشق وبيمارستانه مع الخرائط والصور .

تطلب من مكاتب دمشق الشهيرة